

في ليلة عيد الميلاد، كنتُ وحيدةً أتسكعُ في الطرقات الصقيعية، والأسواق المكتظة بالوجوه الصاخبة، أبحث عن سلوى لوحدي بين الدببة الثلجية المنصوبة على قارعة الطريق.

عرجتُ بالمصادفة على دكان صغير لالتقاط الصور الفوتوغرافية.

خطر بيالي خاطر: أن أدلف إلى الدكان، ألتقط صورة، لأرسلها إلى عائلتي في بلدي البعيد.

قابلني المصورُ بابتسامة لبقة، ثم أخذني جانباً إلى حجرة التصوير المتواضعة. سألتني كيف أود أن تكون صورتي. أخبرته أنني أريدها عادية، تُظهرني كما أنا، حتى أرسلها إلى عائلتي تذكراً.

صمتَ. بدا عليه الاستغراق في التفكير، ثم عدل من وضع الكاميرا، وأضاء المصابيح الكاشفة بعد أن وجهها نحوي. وقال: «ابتسمي...»

أبتسم؟ حسناً، سهل جداً. ومددتُ شفتي أقصى ما أستطيع، وفتحتُ فمي لتظهر أسناني. لكن المصورُ ثار علي فجأة.

- ما هذا؟ قلتُ ابتسامة!

- حسناً.. حسناً، كيف بدون أسنان.. حسناً.

وأطبقتُ شفتي على أسناني، وظللتُ محتفظةً بوضعي. لكنه ثار علي من جديد، وقال إنني أبعد كبهلوان يحاول أن يضحك الأطفال.

وحاولتُ... وحاول هو أن يعلمني كيف أبتسم. أسمعني جميع الطرائف التي يعرفها. لكنني لم أبتسم! أخيراً، أخضرتُ لي نماذج من صور مختلفة التقطتُ لأشخاص مختلفين، وقال لي حاولي أن تقلديهم.

وحاولتُ...

وتأهب هو لتصويري. حتى إذا جاء العد التنازلي لالتقاط الصورة، عطستُ!

وأعاد الكرة.

وجحظتُ عيناى عند إضاءة الفلاش.

ومرةً أغمضتُ عيني.

ومرةً... ومرةً...

إلى أن توقفتُ عن التقاط المزيد من الصور، وأخبرني أن التصنع لن يجدي معي، وأن علي أن أتذكر آخر مناسبة مررتُ بها لأتخيل نفسي أحيائها من جديد.

أعجبتني الفكرة. وبدأتُ أستعيد آخر مناسبة سعيدة أذكرها. كانت حفلاً تخرجي من الجامعة بتقدير «امتياز»، قبيل هجرتي بأسابيع. كانت فرحةً عائلتي بي لا توصف. وهنا بدأتُ دموعي تتساقط رغماً عني أمام عدسة الكاميرا.

بدا على المصور الإعياء، وأخذ يضرب كفاً بكف. قال: «أهكذا كانت أوقاتك السعيدة؟! ثم أطفأ المصابيح، وأغلق الكاميرا.

حاولتُ أن أقتعه بأن يلتقط لي صورةً بلا ابتسامة، لأنني لا أحسن فن الابتسام. تدرعتُ بأنني أنتمي إلى شعب يبكي في أفراحه وأحزانه. وجربتُ أن أسمع شياً من مراثينا وحسراتنا على الأمجاد الغابرة. لم يفهم شيئاً، لكنه اقتنع بأن يصورني كما أنا.

وجلستُ. وحدقتُ إلى عدسة الكاميرا الدائريّة. حدقتُ إليها بلا ابتسامة.. بلا شيء.. وبينما كان يعيد تهيئة الكاميرا، أخذتُ أتسلى بالنظر إلى الصور المعلقة في الحجرة. كلّها كانت ذات وجوه جميلة باسمه حلوة. أشعر بها تحدّق إليّ وتبتسم لي. تخيلتُ صورتني بينها كيف تكون. لا بدّ أنّها ستكون صورة باهتة بائسة.

من أعماقي المتحرّجة، رغماً عنّي انطلقتُ ضحكةً مجنونة، تلتها أخرى فأخرى. كان يهيا لي أنّني أرى وجوهاً كثيرة باسمه تحيط بي وتقول «ابتسمي.. ابتسمي»، وأنا أصبح بأعلى صوتي: «لا أعرف، لا أعرف». وأنخرط في موجة ضحك أخرى، وأصبح «لا أعرف، اتركوني وشأنني»، وأضحك، وأشعر مع الضحك بأنفاسي تختنق.

لا أدري ماذا حدث بعدها، لكنني أفقتُ من موجة الضحك، لأجد المصورّ قد المم عدته بصمت وغادر المكان.

بعد أيام قليلة، وصلني بواسطة البريد مغلفٌ بداخله صوري... مع رسالةٍ من المصورّ يثبتني فيها أنّه سيعتزل مهنة التصوير، ليُدرس الأنثروبولوجيا العربيّة.

كانت عبارةً عن مجموعة صور من التعبيرات المتناقضة، أبكي في إحداها، وأضحك في أخرى. تحيرتُ في أيّ منها أرسل. ثم وضعتها كلّها في مطروف كبير، وكتبتُ على ظهره:

«إلى الوطن العربيّ...»

إلى عائلتي... مع التحية!»

الدمام